Charles Dobzynski, **Le miroir d'un peuple. Anthologie de la poèsie yidich 1870 - 1970.** (Paris, Gallimard, 1971).

هذا الكتاب : مرآة شعب او مئة عام (١٨٧٠ — ١٩٧٠) من الشعر اليهودي باللغة اليديشية ، رغم مظهره الادبي المحض ، اذن المحايد ، هو في الواقع كتاب صهيوني لخدمة غرض صهيوني : اضطهاد اليهود في أوربا الشرقية حاليا ، لكنه يخدم هدفه على جبهة الادب لا على جبهة السياسة. ففي الوقت الذي كانت فيه الحكومة الاسرائيلية بين ٦٧ — ١٩٧٠ تهدم منازل الفلسطينيين في الارض المحتلة وتصادر أملاكهم وتعتقلهم اعتباطيا وتمر عليهم مياسيم التعذيب في الزنزانات المغلقة وتعتقل شعراء الارض المحتلة وتفرض عليهم الاقامة الجبرية ، كانت ، ومن ورائها الجوقة الصهيونية العالمية تثير من جديد قضية اضطهاد اليهود الشرقيين عامة والمثقفين منهم خاصة كتغطية بارعة لاصوات المضطهدين الفلسطينيين داخل وطنهم المحتل وخارجه . في هذا الوقت بالذات اصدر المؤلف والشاعر الفرنسي الصهيوني اليساري الشهير شارل دوبزنسكي هذا الكتاب الذي اعترف هو نفسه بأنه لم يكن على جدول اعماله الادبية. فقد كان مشغولا باصدار ديوانه الجديد وباعادة النظر في ترجمته لديوان ناظم حكمت . الا أنه ، على حد زعمه ، « أحس بصوت من الاعماق الداخلية هو صوت ذلك الهاجس الذي لازمني منذ طفولتي : عذاب يهود الشتات المرير وانعكاساته في شعر الغربة » .

كتب المترجم مقدمة طويلة عن اللغة اليديشية يبدو فيها التحيز ذو الطابع الرومنطيقي بارزا جاء فيها : « اللغة هي بالنسبة الى كل شعب معطى تجريبي ، ووسط طبيعي تماما مثل الهواء الذي يتنفس والنور الذي يرى . اما بالنسبة لليهودي فاللغة شيء آخر مختلف تماما : اللغة هي وسيلة اليهودي لتأكيد قوميته وشخصيته الثقافية المتميزة في بحران الشتات . اللغة بالنسبة لليهودي هي في نفس الوقت ثمرة واداة النضال اليومي من اجل البقاء على قيد الحياة » . وهنا نلمس اسطورة الشعب المختار جلية . الشعب الذي هو فوق قوانين التاريخ ، الشعب الذي ثبت رغم ارادة التاريخ . فاذا كانت اللغة هي بالنسبة لكل شعوب الارض تعبيرا تلقائيا عن الحياة الاجتماعية والنفسية ، فهي بالنسبة لليهودي تعبير عن قوميته « الفولاذية » التي لم تمت بعد ألفي عام من الحل والترحال !

كانت الحركة الصهيونية تقول ان اليهودية هي وسيلة للحفاظ على القومية اليهودية . اما دوبزنسكي فقد اضاف جوادا آخر هو اللغة ، التي يعالجها كشاعر افسدته الصهيونية : « اني قادم من محيط لا شطآن له ، محيط اعماقه من اخاديد القرون ومن ذكرى الالم والامل المتجددين على مر الايام ، محيط ملحمة الزمن الذي صاغ التماثل القومي بين الشعب اليهودي ولغته » .

يستغرب القارىء لهذا الكتاب الشعري وجود عشرات الصفحات التاريخية عن مذابح اليهود في المانيا النازية وروسيا الستالينية وحديثا طويلا مملا عن اضطهاد المثقفين اليهود في اوربا الشرقية. لكن استغرابه يزول عندما يصل الى مسك الختام : « ليس أمام اليهودي المضطهد الا ان يعود الى وطن الميعاد » أي ان يعود الى فلسطين المحتلة ليضطهد شعبا آخر ومثقفين آخرين ليس أمامهم أمام الاضطهاد الصهيوني لهم في عقر دارهم الا الهجرة او بالاصح التهجير او التردد بين السجن والاقامة الجبرية وابتلاع اطنان الاهانات يوميا . معظم قصائد الشعراء الاربعة والثمانين التي يضمها هذا الكتاب قصائد ملتزمة بالقضية الصهيونية باستثناء عدد قليل من القصائد . لان « البرج العاجي لا يعرفه ولا يعترف به الذين ضرب التاريخ حولهم حصارا » على حد قول احد الشعراء اليهود في الديوان . وما احرى ان يكون هذا الشعار هو شعار الشعراء الفلسطينيين لانهم اليوم هم الذين ضرب التاريخ عليهم حصارا .

فهل لهذا السبب نجد ان معظم قصائد الديوان حزينة لا تدور الا حول الاغتراب الروحي لليهود ؟ من الواضح ان المترجم تعمد اختيار هذا النوع من الشعر ليجعل مأساة اليهود ، الذين تحولوا من شعب مظلوم في اوروبا الى شعب ظالم في فلسطين، وكما قال ماركس : « ان شعبا يضطهد شعبا ليس شعبا حرا » ، حاضرة في وعي وضمائر القراء الغربيين كما لو كانت ما زالت حية ، كما لو وقعت بالامس ، وكما لو كان القارىء الغربي المثقل « بعقدة الذنب » ما زال مدعوا لان يبحث لها عن